3

حكاية

خنفس الروث

عندما نريد المكانة، نسعى لتطوير أنفسنا

خنفس الروث مغامرة سريعة الإيقاع وممتعة؛ فالخنفس عصبي المزاج يخرج إلى العالم ويواجه مصاعب كثيرة، ولكنه يعود من مغامرته دون أن يتغير من رؤاه المغلوطة شيء. وما كان استعصاء هذا المخلوق على التغير بعدما مر به من مواقف إلا لأنه نموذج للنرجسي الكامل: فعندما يواجه معلومات تتحدى صورته المتضخمة عن ذاته، يعيد تأويل الحقائق على الفور. وشعار خنفس الروث هو: «لا يهم أن تعرف نفسك، المهم أن تتعلم كيف تنسج حولها الحكايات».

تبدأ المشكلة عندما يكافأ حصان الإمبراطور بحذوات ذهبية، وقد استهزئ بالخنفس. فيُستفز الخنفس المغالي في تقدير مكانته؛ ويرى أنه لا يقل أهمية عن الحصان وأنه تعرض للظلم. ترفض الحشرة مواجهة الواقع، فتظل طوال الحكاية تستنفد طاقتها في الدفاع عن هذا الوهم.

وبينما تقرأ الملخص التالي ـ أو الحكاية كاملة إن شئت ـ ندعوك إلى التفكير في الأسئلة التالية: ما الذي يجذبك إلى بعض الشخصيات؟ ما الذي يضايقك؟ هل تذكرك الحكاية بمواقف فضلت فيها الوهم على علم الحقيقة؟

ملخص الحكاية

كوفئ جواد الإمبراطور بحذوات ذهبية لأنه حمل الإمبراطور في المعركة، وقاتل بشجاعة، وأنقذ حياة الإمبراطور.

عندما أنهى الحداد تركيب الحذوات الذهبية، زحف خنفس الروث خارجاً من بيته، ورفع أرجله النحيلة وقال: «الأرجل الكبيرة أولاً ثم الصغيرة». سأله الحداد: «ماذا تريد؟» فرد عليه الخنفس: «أحذية ذهبية». قال الحداد: «ولكن ألا تعرف لماذا يكافأ الحصان بأحذية ذهبية؟ ألا تفهم؟» صاح الخنفس في وجه الحداد: «أفهم ماذا؟» فقد كان الحصان - في رأي الخنفس - مخلوقاً كسولاً، يعجز عن أن يطعم نفسه أو يسقيها، ومع ذلك تلقى معاملة متميزة. وهنا رحل الخنفس الساخط غاضباً.

طار خنفس الروث من الاصطبل وحط في حديقة أزهار جميلة، وسمع خنفساء مرقطة الجناحين تقول: «أليس المكان هنا بديعاً؟» ولكن الخنفس سفّه كلامها قائلاً: أتصفين هذا المكان بالجمال؟! «هذا المكان الذي لا يوجد به حتى كومة واحدة من الروث!» ثم قابل يرقة فراشة، كانت تتحدث عن «نومها العميق» ثم استيقاظها بسبب فراشة تطير. اعتبر الخنفس أن يرقة الفراشة تهذي، فسخر منها وطار وهو يشعر بالضجر الشديد.

بعد ليلة من المطر الغزير، سمع الخنفس ضفدعين يقولان إن من لا يعشق هذا الطقس المطير لا يحب وطنه. وعندما سألهما الخنفس عن الطريق، تجاهله الضفدعان فشعر بالإهانة وقال في نفسه: «لن أسأل أحداً بعد اليوم». وكان قد سأل ثلاث مرات دون أن يرد عليه أحد.

و أخيراً، وجد الخنفس حفرة بها جماعة من نوعه، فتفاخر بينهم أنه أتى من اصطبل الإمبراطور، وأنه ولد وفي أرجله أحذية ذهبية. وسرعان ما تزوج الخنفس، لكنه ما لبث أن شعر بالضجر ورحل.

وبعد المزيد من المغامرات، رجع الخنفس في النهاية إلى الاصطبل؛ إذ طار عبر النافذة. وهبط على شعر عنق جواد الإمبراطور الناعم مثل الحرير. حاول الخنفس أن يعي ما حوله، ثم قال لنفسه: «ها أنا الآن أمتطي جواد الإمبراطور، فماذا أقول في ذلك؟ والأمر كله يتضح». وفجأة، امتلأ الخنفس بالسعادة وقال: «ليس العالم بقدر ما كنت أظن من سوء». لماذا منح جواد الإمبراطور حذوات ذهبية؟ لأن الخنفس سيكون راكبه.

هل تعلم...؟

هل كنت تعلم... أن خنفس الروث مخلوق يسعى للمكانة العالية فيبالغ في تقدير ذاته بالرغم من أنه يأتي من أدنى المستويات، وهو يمتلئ بأوهام العظمة. ينطبق هذا الكلام على هـ. ك. أندرسون إلا أن خيالاته الجامحة قد تحققت.

تمثل حياة أندرسون نموذج هوراشيو باللغز الأمثل. فإذا كانت قصص النجاح غير شائعة في العالم الجديد؛ فهي تكاد تنعدم في العالم القديم. مع ذلك، وعلى رغم البنية المجتمعية المغرقة في الطبقية والانحيازات التي يمتد عمرها إلى قرون، استطاع أندرسون أن يشق طريقه، لا يعتمد إلا على موهبته الفطرية وروحه التي لا تقهر. فقد تعهد فنه بكل حماس، وكان وجوده ينشر البهجة، كما أنه تمتع بذكاء اجتماعي شديد، وكان يسعى للارتقاء بلا هوادة.

كان هذا الأديب يتمتع بموهبة التسويق، ففي أول رحلة له إلى الخارج كتب يوميات رحلته، ونشرها فور عودته إلى كوبنهاغن. وفيها عرّف قراءه بالمدن الألمانية العظيمة، وجبال الهارتز المهيبة، ونجوم المجتمع الألماني. ففي مدينة دريزدن، حضر منتدى لودفيغ تيك الأدبي، وكان في ذلك الوقت أعظم أدباء ألمانيا بعد غوته، وقد ذكر أندرسون في يومياته أن تيك سأل: «إن كنت أنا (أندرسون) مؤلف» رحلة على الأقدام

«وعندما أكدت ذلك، قال شيئاً غاية في اللطف...» وهكذا، قدم هـ. ك. أندرسون سيناريو يوحي بأنه كان بالفعل معروفاً في ألمانيا، بل يقرؤه أعظم فنانيها. أما ما تجنب أندرسون ذكره فهو أنه من أرسل نسخة كتابه إلى الأديب الألماني قبل هذا اللقاء بسنة. كانت هذه حيلة شديدة التأثير، وقد كررها أندرسون كثيراً في حياته عند زيارة الفنانين الكبار.

قام أندرسون بثلاثين رحلة تقريباً خارج الدنمارك، وأصبحت يوميات تلك الرحلات ذائعة ومحبوبة للغاية؛ بل إنها تعد من بين أفضل أعماله.

الحكاية الكلاسيكية

حصل حصان الإمبراطور على حذوات ذهبية، حذوة في كل قدم.

لماذا حصل على حذوات ذهبية؟ لأنه كان أجمل الحيوانات، له ساقان رشيقتان، وعينان ذكيتان، وشعر كخمار حريري ينسدل من على عنقه. وكان قد حمل سيده وسط سحابات من دخان البنادق ووابل من الرصاص. وكان يسمع صفير الرصاص وأزيزه، وقد اشترك في المعركة بنفسه فعض ورفس عند هجوم العدو. بعدها، قفز قفزة كبيرة، والإمبراطور على ظهره، من فوق حصان العدو الساقط على الأرض؛ فأنقذ تاج الإمبراطور المصنوع من الذهب الأحمر، وأنقذ حياة الإمبراطور نفسه؛ التي هي أغلى من الذهب الأحمر. ولهذا السبب، حصل جواد الإمبراطور على حذوات ذهبية ـ حذوة في كل قدم.

زحف خنفس الروث من مخبئه وقال: «الأرجل الكبيرة أولاً ثم الصغيرة، بالرغم من أن العبرة ليست بالحجم». ثم مد أرجله النحيلة للحداد.

سأله الحداد: «ماذا تريد؟»

رد خنفس الروث: «أحذية ذهبية».

«لابد أنك مجنون، هل تريد أنت أيضاً أحذية ذهبية؟!»

قال خنفس الروث: «أحذية ذهبية، ألست مثل ذلك الحيوان الضخم الذي يحتاج لمن يرعاه وينظفه ويعتني به ويطعمه ويسقيه؟ ألست أنتمي أنا أيضاً إلى اصطبل الإمبراطور؟»

سأله الحداد: «ولكن ألا تعلم لماذا يحصل الحصان على حذوات ذهبية؟! ألا تفهم؟!»

قال خنفس الروث: «أفهم؟ أفهم أن هذا قلة احترام لي، وأنها إهانة، لهذا فأنا خارج إلى العالم الواسع».

رد الحداد: «أسرع بالرحيل!»

قال الخنفس: «متسلط!» ثم خرج من الاصطبل، وطار لمسافة قصيرة. ثم هبط في حديقة زهور صغيرة بهيجة، تعبق برائحة الورود وأزهار الخزامى.

كانت إحدى الخنافس المرقطة بالأسود على أجنحتها الحمراء التي تشبه الدرع تطير هنا وهناك، وتقول: «أليس هذا المكان بديعاً!؟ فما أزكى رائحته! وما أطيبه من مكان!» رد عليها خنفس الروث قائلاً: «لقد نشأت وسط أشياء أجمل من هذه. أتصفين هذا المكان بالجمال؟! هذا المكان الذي لا يوجد به حتى كومة واحدة من الروث!»

ابتعد الخنفس حتى وصل إلى ظل نبتة كرنب كبيرة تزحف عليها يرقة وهي تقول: «ما أجمل الدنيا! الشمس دائمة الدفء، وكل شيء يبعث على البهجة. وعندما يأتي اليوم الذي أرقد فيه وأموت، كما يسمون رقادنا، سأستيقظ مرة أخرى وأكون فراشة تطير».

قال لها خنفس الروث: «من تظنين نفسك؟! أتظنين أنك فراشة تطيرين هنا وهناك؟! حتى وإن نمت لك أجنحة تطيرين بها؛ فأنا آتٍ من اصطبل الإمبراطور، ولا أحد هناك يشاركك الرأي، حتى جواد الإمبراطور الذي يرتدي ما أرميه من أحذية ذهبية». ثم طار خنفس الروث وهو يقول: «لن أغضب؛ مع أن ذلك يثير الغضب».

بعد ذلك، هبط في بقعة كبيرة من العشب، فرقد قليلاً ثم غلبه النوم.

وفجأة هطلت الأمطار الغزيرة، وملأ الماء كل مكان، فاستيقظ الخنفس وشرع على الفور في حفر الأرض، حتى يختبأ فيها، لكنه عجز عن ذلك، فتعثر وسقط وعام على بطنه، وانقلب على ظهره. كان الطيران مستحيلاً دون شك، وظن أنه لن يخرج من هذا المكان حياً، فرقد حيث كان.

عندما خف المطر قليلاً، واستطاع الخنفس أن ينفض الماء عن عينيه، لمح شيئاً أبيض اللون، كان مفرش سرير منشور، توجه الخنفس إليه ودخل إلى إحدى طيات المفرش المبلل. لم يكن بحال تشعره هنا بما كان يشعر به حين يرقد في كومة دافئة من الروث في الاصطبل. لكنه كان أفضل الأماكن المتاحة، فمكث هناك نهاراً كاملاً وليلة كاملة، مع استمرار الطقس المطير. وفي الفجر خرج خنفس الروث من مكانه وقد بلغ به الضيق من هذا الطقس مبلغه.

كان ضفدعان يجلسان على المفرش تلمع عيونهما، قال أحدهما: «ما أروع هذا الطقس! إنه منعش للغاية، وهذا المفرش يجمع الماء بصورة مدهشة؛ حتى إن رجلي الخلفيتين لتتأرجحان وكأني على وشك السباحة. قال الآخر: «أود أن أعرف إذا كان العصفور الذي يجوب كل الأجواء، لو أنه في رحلة من رحلاته الكثيرة قد وجد مناخاً أفضل من مناخنا، برياحه وأمطاره، وكأننا نعيش في مصرف مياه. فإن كان ذلك لا يسعد الواحد منا، فإنه بالتأكيد لا يحب وطنه».

سألهما خنفس الروث: «هل دخلتما يوماً اصطبل الإمبراطور؟ إن الطقس هناك دافئ وطيب الرائحة، هذا ما اعتدته، وهذا مناخي، ولكن لا يمكن أن آخذه معي في السفر. أليس في هذا البستان مستنبت يصلح أن يسكنه علية القوم من أمثالي ويشعروا فيه بالراحة؟»

لكن الضفدعين لم يفهما الخنفس أو لم يريدا أن يفهماه.

«لن أسأل مرة ثانية أبداً». قال خنفس الروث ذلك بعد أن سألهما بالفعل ثلاث مرات دون أن يجد إجابة.

ثم ابتعد عنهما قليلاً، فوجد أصيص زهور فخاري ملقىً على الأرض. لم يكن هذا مكان الأصيص الأصلي، لكن وجوده هنا وفّر مأوى للخنفس. كان يعيش في الأصيص عدد من عائلات حشرة المقص التي لم تكن تحتاج مساحة كبيرة، بقدر ما تحتاج إلى الصحبة. وكانت إناثها تتمتع بمشاعر أمومة فياضة، فكانت كل أم ترى صغارها الأجمل والأذكى.

قالت إحدى الأمهات: «خطب ابننا، هذا الولد الجميل البريء الذي كل طموحه أن يتسلق ليدخل أذن قسيس. إن به طفولة آثرة، وهذه الخطوبة هي التي تحفظه من الجموح، وهذا شيء يريح كل أم».

قالت أم أخرى: «أما ابني فما إن خرج من البيضة حتى ظهرت شقاوته، الولد مفعم بالطاقة، إنه لا يترك شيئاً على حاله، وهذا يسعد كل أم، أليس كذلك يا سيد خنفس الروث؟» فقد عُرف القادم الجديد من شكله.

رد خنفس الروث: «كلاكما على حق». وهكذا دعونه إلى غرفة المعيشة، وهي أقصى مكان داخل ذلك الأصيص الفخاري.

قالت الأم الثالثة والرابعة: «والآن يجب أن ترى أطفالي الصغار فهم الأجمل والأخف ظلاً وليسوا بأشقياء أبداً، إلا عندما تؤلمهم معداتهم، وهذا أمر معتاد في عمرهم هذا».

وهكذا أخذت كل أم تتحدث عن أطفالها، وكان الصغار يتحدثون أيضاً، ويستخدمون مقصاتهم الصغيرة الموجودة في ذيولهم ليشذبوا بها شاربي خنفس الروث. «إنهم هكذا ولا يمكن أن يبقوا ساكنين ـ هؤلاء الأشقياء». قالت الأمهات ذلك وهن يفضن بحب هؤلاء الصغار. لكن ذلك ضايق خنفس الروث فسألهن إذا ما كان هذا المكان بعيداً عن أقرب مستنبت. قالت حشرة المقص: «الطريق إليه بعيد جداً، بعد المصرف. وأرجو ألا يذهب أحد من أطفالي إلى هناك؛ لأن في ذلك موتي».

«حسناً! سأحاول أن أبلغ ذلك المكان البعيد». قال خنفس الروث هذا ومشى دون أن يلقي كلمة تحية، ويدل هذا على أدب جم، أليس كذلك؟

وفي المصرف، قابل الخنفس عدداً كبيراً من أبناء جنسه، كلهم خنافس روث. قالت الخنافس: «هذا وطننا، وهو مكان مريح، نرجو أن تسمح لنا أن ندعوك للنزول إلى هذا الوحل الكثيف، فلابد أنك منهك من رحلتك». قال خنفس الروث: «فعلاً! فقد رقدت طويلاً في ذلك المفرش أثناء المطر، والنظافة تضايقني إلى حد بعيد. ولقد أصبت بالروماتيزم في مفصل جناحي من طول الوقوف في تيار الهواء تحت تلك القطعة الفخارية. كم هو مريح أن أكون بين بني جنسي».

سأله كبيرهم: «هل أنت من أهل المستنبت؟» رد خنفس الروث: «بل من مكان أرقى من ذلك، أنا آتٍ من اصطبل الإمبراطور حيث ولدت بأحذية ذهبية، وأنا مسافر في مهمة سرية، ولكن إياكم أن تسألوا عنها، فلن أبوح بشيء».

بعد ذلك زحف خنفس الروث نحو الوحل الكثيف، وهناك كانت تجلس ثلاث شابات من خنافس الروث، كن يكتمن الضحك حين لم يجدن كلاماً يقلنه. قالت أمهن: «لسن مخطوبات». عندها ضحكت الشابات ثانية ولكن حياءً هذه المرة.

قال خنفس الروث الرحال: «لم أر أجمل منكن في اصطبل الإمبراطور».

«لا تفسد بناتي! ولا تتحدث إليهن إلا إن كان قصدك شريفاً، لكنك تحدثت معهن بالفعل، وأنا أبارك الزواج».

صاح الجميع: «مرحى!» وهكذا خطب خنفس الروث واحدة منهن. الخطوبة أولاً ثم الزواج، ولكن لم الانتظار؟

مضى اليوم الأول على نحو طيب، ومر الثاني ببطء، ولكن مع اليوم الثالث يكون على الواحد التفكير في طعام الزوجة وربما الصغار أيضاً.

قال الخنفس: «لقد أُخذت على غرة، وسأرد لهم المفاجأة».

وقد فعل، إذ تركهم ورحل. مر نهار كامل، ومرت ليلة كاملة، صارت الخنفساء الزوجة أرملةً. قال خنافس الروث الآخرون إن ذلك الخنفس الذي أدخلوه عائلتهم كان متشرداً لا خير فيه، فقد ترك زوجته وأصبحت الآن عبأً على العائلة. قالت أمها: «في هذه الحالة يمكن أن تبقى مع أخواتها وكأنها عذراء، العار على ذلك النذل الشرير الذي هجرها».

في ذلك الوقت، كان الخنفس في الطريق، وقد عبر ماء المصرف فوق ورقة كرنب. وقبل الضحى، مر رجلان وشاهدا خنفس الروث، فالتقطاه وأخذا يقلبانه على كل جانب. كان كلاهما من أهل العلم، ولاسيما الشاب الذي قال: «يرى الله الخنفس الأسود فوق الحجر الأسود في الجبل الأسود، ألا يقول الدين ذلك؟» ثم ترجم اسم خنفس الروث إلى اللاتينية، وتحدث مع رفيقه عن سلالته وعاداته. لم يوافق العالم الأكبر سناً على أخذ الخنفس معهما إلى البيت، معللاً ذلك بأن

لديهما بالفعل عينات لا تقل عنه جودة. لم يكن من حسن الأدب أن يقول الرجل ذلك، كما قال الخنفس في نفسه، وبعدها طار من يده. طار الخنفس مسافة طويلة، حتى جف جناحاه، ثم وصل إلى المحمية الخضراء (الصوبة). كانت إحدى النوافذ قد تركت مفتوحة، فتمكن من التسلل للداخل والحفر في الأرض حتى وصل إلى مزيج الروث وأوراق الشجر الطازج، فقال: «هذا لذيذ».

وسرعان ما غلبه النوم فحلم أن حصان الإمبراطور قد سقط ومات، وتم منح «السيد» خنفس الروث حذوات الحصان الأربعة مع وعد بحذوتين أخريين. «كم كان ذلك ممتعاً!» بعد ذلك استيقظ خنفس الروث، فزحف خارج التربة، ونظر إلى أعلى، «ما أروع جو الصوبة! فالنخيل الباسق يمتد إلى أعلى يتخلله ضوء الشمس، وتحته تنمو الخضرة الكثيفة، والزهور التي تتألق بالحمرة مثل النار، والصفرة كالعنبر، والبياض كالثلوج المتساقطة حديثاً».

قال خنفس الروث: «يا لها من مجموعة نباتات ضخمة، كم ستصبح شهية عندما تبدأ في التعفن، إنها خزانة طعام عظيمة. أتوقع أن أجد بعضًا من أبناء جنسي يعيشون هنا. سأذهب للبحث عنهم وأرى إن كان بينهم من يمكن أن أخالطه؛ فأنا لدي كبريائي، نعم لدي كبريائي». ثم أخذ يمشي في المكان وهو يفكر في حلمه عن الحصان الميت والأحذية الذهبية التي فاز بها.

وفجأة، التقطت يد ما خنفس الروث، وضغطت عليه ولوته وقلبت فيه. كان ابن البستاني الصغير وصاحبه في الصوبة، فشاهدا الخنفس وأخذا يلهوان به ثم وضعاه في ورقة عنب ثم في جيب سروال أحدهما، حيث أخذ يتلوى، لكن الصبي ضغط عليه بيده، ثم أسرع بالذهاب إلى البحيرة الكبيرة في طرف البستان، وهناك وضع خنفس الروث في نعل حذاء خشبي مكسور، وربط به عصا كأنه صار، وقام بتقييد خنفس الروث فيه بخيط صوفي، فهو الآن قائد مستعد للإبحار.

كانت بحيرة بالغة الاتساع، فظنها خنفس الروث محيطًا عظيمًا. أخذته المفاجأة حتى إنه انقلب على ظهره وهو يدفع بأرجله في كل اتجاه.

أبحر الحذاء الخشبي مع تيارات المياه، لكن حين كانت تبتعد «السفينة»، كان أحد الصبيين يشمر عن ساقيه ويدخل في المياه ويعيدها قرب الشاطئ. وعندما سحبت المياه السفينة مرة أخرى، نودي على الصبيين، وكان النداء جاداً، فأسرعا ليلبيا النداء تاركين الحذاء الخشبي، مجرد حذاء خشبي، فأخذ يبتعد عن الأرض كثيرًا. كان الأمر مخيفًا لخنفس الروث الذي لم يستطع الطيران لأنه كان مربوطًا في الصاري. حينئذ زارته ذبابة.

قالت الذبابة: «لدينا طقس رائع هنا، يمكن أن أستريح وأغمر جسمي بالشمس، فلديك مكان مريح للغاية».

«أنت تتحدثين وكأنك بلا عقل، ألا ترين أنني مقيد؟!»

«حسناً، لكني لست مقيدة». ثم طارت بعيداً.

قال خنفس الروث: «أنا الآن أعرف حقيقة الدنيا». إنها دنيا وضيعة، وأنا المخلوق المحترم الوحيد فيها. في أول الأمر حرموني من أحذيتي الذهبية، ثم اضطررت للنوم في مفرش مبلل، ثم وقفت في تيار هواء، وأخيرًا يفرضون علي زوجة. وعندما أخذت خطوة جريئة نحو العالم لأرى شكل الدنيا، وما ينبغي أن تكون عليه من أجلي، يأتي بشري أحمق ليلقيني في بحر متلاطم. يحدث لي كل هذا بينما يسير حصان الإمبراطور بحذوات ذهبية، إن هذا أشد ما يضايقني. ولكن لا يمكن توقع التعاطف في هذا العالم؛ فحياتي حافلة للغاية ولو أن هذا لا يفيد عندما لا يدري بها أحد، ولكن العالم لا يستحق أن يعرف، وإلا لمنحني أحذية ذهبية في اصطبل الإمبراطور، بل إنني حين منح الحصان حذوات ذهبية مددت أرجلي، لو كانوا أعطوني أحذية ذهبية لشرف بي الاصطبل، أما الآن فقد خسرني وخسرني العالم أيضاً، وانتهى كل شيء.

ولكن لم يكن كل شيء قد انتهى؛ إذ جاء قارب وبه بعض الفتيات.

قالت واحدة منهن: «هناك حذاء خشبي عائم». قالت الأخرى: «وهناك مخلوق صغير مقيد به». كان قارب الفتيات بمحاذاة الحذاء الخشبي تمامًا، فالتقطنه، وأخرجت إحداهن مقصاً صغيراً وقصت

الخـيط الصـوفي دون أن تؤذي خنفس الروث. وعندمـا وصلن إلى الشاطئ وضعته إحداهن في النجيل وقالت: «ازحف! ازحف! أو طر إن استطعت. فالحرية شيء رائع».

طار خنفس الروث مباشرة عبر نافذة مفتوحة في مبنى ضخم، وهبط منهكًا داخل شعر عنق جواد الإمبراطور الطويل الحريري، إذ كان يقف في الاصطبل الذي ينتمي إليه. تعلق خنفس الروث بالشعر، وجلس مكانه برهة وهو يستجمع نفسه. «ها أنا ذا أجلس فوق جواد الإمبراطور، امتطيه كفارسه. ماذا أقول؟ نعم، لقد بدأت الأمور تتضح الآن! هذه فكرة جيدة وصائبة أيضًا. فالحداد سألني لماذا منح الحصان حذوات ذهبية؟ الآن فهمت! من أجلي! منح الحصان حذوات ذهبية من أجلي».

امتلأت نفس خنفس الروث سعادة وقال: «إن السفر ينير العقل». كانت الشمس ساطعة وتنير الدنيا بجمال آخاذ. قال خنفس الروث: «الدنيا ليست سيئة في الحقيقة، بل كل ما عليك هو أن تعرف كيف تفهمها». نعم، كانت الدنيا رائعة. منح جواد الإمبراطور حذوات ذهبية لأن خنفس الروث سيركبه.

«الآن سأنزل إلى بقية الخنافس هنا، وأخبرهم بكل ما حصل لي، سأخبرهم بكل ما لاقيته من متع في رحلتي للخارج، وسأقول لهم إنني سأقيم في الوطن حتى تبلى حذوات الحصان الذهبية».

تطبيقات الحكاية

خنفس الروث مخلوق مستغرق في ذاته، يرفعها فوق قدرها، يدفعه طلب المنزلة العالية ويفضل أوهام تفخيم الذات على التعامل مع الحقائق. ولكننا لا نحصل على أحذية ذهبية بالاستغراق في الذات، ولا يمكننا بناء حياة عملية حقيقية على أساس من أوهام. فاللاعب المتميز يعي نقاط قوته وضعفه ويعي دوافعه وأهدافه ومحفزاته المعنوية. وليس الغرض أن نكبت كل النوازع التي تستحضر شخصية الخنفس؛ فلاشك أن تلك الطاقة وذلك الخيال يمكن أن يكون مفيدًا للغاية، وإنما الهدف هو أن نواجه أنفسنا وواقعنا الحالي حتى يمكن أن نصل إلى التمكن الشخصي والمهني الذي نحتاجه للنجاح.

الخنافس المختالة

«ألست مثل ذلك الحيوان الضخم الذي يحتاج لمن يرعاه وينظفه ويعتني به ويطعمه ويسقيه؟»

إن الاستغراق في الذات هو أحد عيوب خنفس الروث، فهو لا يخالجه أي شك في أهميته. فهو حشرة صغيرة نرجسية أو مخلوق متمركز حول ذاته أو بالمصطلح النفسي «مغالٍ في تضخيم الذات».

وليست المغالاة في تقدير الذات هي أشد ما يعيب النرجسيين بل الحط من قدر الآخرين. فلا ضير عندما ينفخ الخنفس المستعلي نفسه ويتفاخر بأنه يأتي من اصطبل الإمبراطور؛ فنحن نفعل الشيء

نفسه عندما نذكر صلتنا بأرقى المدارس والشركات ال 500 الأعلى التي تذكر في مجلة «فورتشن»، حتى وإن كانت تلك الصلة ضعيفة. المشكلة أن الخنفس دائم الحط من شأن الآخرين؛ فهو يصر على أن الحصان عديم المنفعة لأنه لا يستطيع أن يطعم نفسه أو يسقيها، وأن رائحة الزهور في البستان لا عبير لها إن قورنت بنفحة من رائحة الروث، وأن الحفرة الرطبة غير مريحة إذا قورنت بحرارة الروث الرطبة. فالخنفس لا ينافس بالتفوق على الآخرين بل بتحطيمهم. ومثله، مثل النرجسيين جميعًا، لا يستخدم مواهبه الفريدة في الإبداع بل في التدمير.

وفي موقع العمل، يسعى النرجسيون نحو إثارة الإعجاب أكثر مما يسعون إلى إنشاء علاقات إنسانية، فهم يريدون سماع التصفيق لأفكارهم ولا يريدون أن يفحصها أحد، يريدون أن يكونوا على صواب، لا أن يتعلموا، يحبون أن يحمدوا عند النجاح ويلقون باللوم على الآخرين عند الفشل. فتراهم يقولون: «نجح المشروع الأخير لأني أنقذته» أو «لم يكن في تخطيطي أي قصور أو خطأ، لكنهم افتقروا إلى الشجاعة لتنفيذها كاملة»، حسب الموقف. فكأنهم يقفون لالتقاط صورة ولا يعملون حقاً.

وهناك مستغرقون في ذواتهم يعملون بجد، على خلاف الخنفس. وهؤلاء الناس معجبون بذواتهم تماماً، لكنهم لا يجدون مبرراً لتمزيق الآخرين، بل يستخدمون حافزهم الداخلي واستعلاءهم وقدراتهم الإبداعية استخداماً خلاقاً. وبالرغم من أن

هؤلاء الناس ليسوا نرجسيين بالمعنى المجرد للنرجسية، فإن عالم الإنسان (الأنثروبولوجيا) والمحلل النفسي مايكل ماكوبي صك مصطلح «النرجسيين المنتجين» ليصف حالهم.

و«النرجسيون المنتجون» يتمتعون بدافعية ذاتية وثقة بذواتهم كما أنهم مبدعون، ويدل المستوى المرتفع لأهدافهم على جرأتهم، وثقتهم هذه معدية، حتى إن الناس تلتف حولهم وينفذون خططهم. و عندما يتخذ النرجسيون المنتجون القرارات الصحيحة، فإن النتائج تكون مبهرة، أما إذا استولى الغرور عليهم بسبب ما يرونه من تأثيرهم الإيجابي، فإنهم يبدؤون في طلب المداهنة والنفاق ممن حولهم بدلاً من المصارحة بالحقائق بعدما يستولي عليهم يقين بأنهم لا يستحقون «الأحذية الذهبية» فحسب؛ بل إنها من حقهم. وربما ظنوا أن القواعد التي تنطبق على الناس العاديين لا تنطبق عليهم، بل إن القوانين التي تحكم من هم أدنى منهم في الأداء لا تعني لهم شيئاً. وعندما يبدأ النرجسيون المنتجون في اعتبار أنفسهم سادة الكون، فإنهم ينعزلون عن الواقع، أو يدخلون في مخاطرات جامحة باسم المؤسسة. ونتيجة لذلك، فعلى الرغم من نجاحاتهم السابقة الباهرة، فإن إخفاقاتهم قد تحدث دويًا أكبر.

إذا أردت أن تعرف فيما لو كنت تغالي في تقدير قدراتك أم تحط منها، حاول أن تكتب قائمة بنقاط قوتك ونقاط ضعفك، ثم اسأل بعض المخلصين من الأصدقاء أو الزملاء، ممن يعرفونك جيداً وتثق

بآرائهم أن يكتبوا قوائم مماثلة. وستكون المقارنة بين قائمتك وتلك القوائم اختبارًا جيداً لمستوى واقعية تقويمك لنفسك. إن الوعي بالذات صفة محورية في كل قرار مهني محكم.

ثمة مؤشر على صدق الوعي بالذات، وهو قدرة الفرد على أن يتحدث عن نقائصه بحرّية، بل وعلى اتخاذها موضوعًا للتندر والفكاهة. على سبيل المثال، كان واحد من أصدقائي يشير إلى نزوعه لتضخيم الذات بكلمة «نابليون». مثال آخر، قضى أحد أساتذتي عطلة نهاية الأسبوع يقامر في لاس فيغاس، ووصف لي تجربته هذه بأنه «كان ينفث عن الملك بداخله» مثل هذه الفكاهة نراها في الكاتبة آشلي بريليانت عندما تغمز إلى نزوعنا للتمركز حول الذات باختيارها لعناوين كتب مثل «قدروني الآن وتجنبوا الهجوم» و «كل ما أريد هو فراش دافئ» و «كلمة طيبة وسلطة بلا حدود».

الخنافس الساعية للمكانة

لن أسأل مرة ثانية أبداً «قال خنفس الروث ذلك بعد أن سألهما بالفعل ثلاث مرات دون أن يجد إجابة»

ثمة عيب آخر في الخنفس وهو حاجته غير المحدودة للمكانة. فالخنفس مهووس بالأحذية الذهبية؛ فهو يطمع في الحدوات الذهبية. في كتاب «المدفوع» Driven يصف بول لورانس ونيتين نوريا، وهما أستاذان في كلية التجارة بجامعة هارفارد، هذه الرغبة بأنها السعي إلى المزيد من «الاكتناز». ويشير بحثهما إلى أن لدينا دافعاً

داخلياً للارتباط بالآخرين للتعلم والدفاع، إضافةً إلى نزعة الاكتناز هذه، وهذا أحد التحديات التي تواجهنا ـ نحن البشر ـ نظرًا لتعارض هذه الغرائز أحياناً.

لا يهم الخنفس سوى الذهب والمكانة وهو يصر على الدفاع عن أهميته المتصورة؛ فدوافع الارتباط بالآخرين والتعلم عنده مهملة. فهو لا يهتم بالعلاقات الدائمة، ولو مع أبناء جنسه، ولا يهتم بالتعلم أيضاً. هذا النوع من الأفراد ـ أحادي البعد ـ غالبًا ما يتمسكون برؤيتهم للحياة تمسكًا يصل إلى حد التصلب ويرفضون كل رؤية أخرى. على سبيل المثال، من كان التنافس شغلهم الشاغل كثيرًا ما يخاطبون زملاءهم من «الحساسين» و «العاطفيين» بتعبيرات مثل: «استيقظوا وشموا رائحة القهوة». (أي كونوا واقعيين) وهم يتهكمون على الاختلاف والتعاون ويرددون القول بأن هذه الأفكار لا تصلح «للعالم الحقيقي». أما الملتزمون أحاديو البعد فغالبًا ما يرون التنافس بدائيًا والتعاون علاقة أشد رقيًا. ويشعرون أنهم أرقى درجة من زملائهم أصحاب الطموح، إذ يتصورون أنهم سفاحون، أنانيون، محدودو الفكر. وتراهم يقولون لنفرض أن اللاعبين التنافسيين سيحققون النتائج المنشودة في هذا الشوط، ماذا عن الأخلاق والروح المعنوية؟ فعلى الأقل عندما يخسر المهذبون يخسرون بشرف.

عندما نكبت دوافع معينة في الآخرين، فإننا نبعد أنفسنا عن تلك الدوافع. فإذا فعلنا ذلك قطعنا صلتنا بجزءٍ من قدراتنا البشرية وإمكاناتنا. وتكون النتيجة أننا نتعرض للخطر، لأن مكان العمل اليوم

دائم التغير، ولا تكفي فيه الميزة التنافسية وحدها أو الميزة التعاونية وحدها؛ بل إننا نحتاج لكل هذا، نحتاج لأن نأخذ من الدوافع الأربعة جميعًا حتى نكتسب «ميزة التكيف»، كما نحتاج لأن نقيّم نقاط قوتنا وضعفنا بإخلاص كما ذكرنا عند مناقشة النرجسية، كما أننا نحتاج لأن نفهم دوافعنا. ما الذي يسعدنا؟ ما الذي يبعث الحيوية فينا؟ ما الذي يدفعنا لأن نبذل قصارى جهدنا؟ بهذا الفهم وحده يمكننا أن نخلق حياة عملية ذات معنى.

الخنافس العدوانية

«إنها إهانة، لهذا فأنا خارج للعالم الواسع»

رد الحداد: «أسرع بالرحيل» قال الخنفس: «متسلط!»

وكأن الخنفس تعوزه العيوب، فأضاف إليه العجز عن التحكم في مشاعره؛ فعندما يحصل الحصان على الحدوات الذهبية يحسده عليها الخنفس، ويأكله الحسد. ويزيد هذا الغليان الانفعالي سوءًا أن الخنفس نرجسي لا يرى عيوبه ولا فضائل الحصان. و يعتبر الخنفس مكافأة الحصان ظلماً، ويرى أن له الحق في أن يغضب، وهنا يلف القصة بخيط من السلبية. فبينما يظن أن سلوكه العدواني الاستعدائي المشاكس من علامات القوة، فإنه لا يظهر إلا ما تحته من ضعف.

مثلنا مثل الخنفس، فإننا نغضب عندما لا تسير الأمور على هوانا. عندما يلهبنا الظلم أو نتعرض للضغط، فإننا قد نتهور ونهاجم، ونشعر بالإهانة لأسباب وهمية، وننفجر. فإذا لم ننفس عن غضبنا فإننا

«نبتلعه»، ونصبح نافدي الصبر ويسهل استفزازنا، ثم نبحث عن مضادات الحموضة لنهضم كل هذا.

إذا أردنا أن نكون لاعبين أقوياء في هذا الاقتصاد دائم التطور، علينا أن نفهم مشاعرنا. ما الذي يطلقها؟ وكيف تظهر؟ و ما أثرها في الآخرين؟ وهل نريد أن نتحكم فيها بشكل أفضل؟ مرة أخرى، يساعد حسُّ الفكاهة على تحقيق ذلك. من هذا أن أحد الزملاء السابقين كان يسهل على نفسه مناقشة نوبات غضبه النادرة والعاصفة في آن واحد، فكان يشير إليها بعبارة «توأمه الشرير».

كثيراً ما نحتاج إلى تهدئة بعض انفعالاتنا، ولكننا نحتاج إلى تنشيط انفعالات أخرى. وأشير هنا مثلاً إلى كثير من الرجال الذين تربوا على كبت مشاعرهم الرقيقة، وإلى كثير من النساء اللاتي تربين على كبح طموحهن، ومن ثم على الجميع أن يحددوا فضاء مشاعرهم. فإذا استطعنا أن ننفث في الحياة ما كبتناه من مشاعر، فربما حققنا قدرًا أكبر من التوازن الانفعالي وكنا أقرب إلى الكمال الوجداني وأكثر تحكماً.

الخنافس الواعية بذاتها

«عندي كبريائي، وهذا كبريائي»

تعاني خنافس الروث الذين يعيشون بيننا عجزًا مذهلاً عن رؤية نقائصهم. فعندما ينجحون، لا يرون سببًا لأن يتغيروا، وعند الفشل يقع اللوم على الآخرين. وأحياناً يفرض الواقع نفسه ويضربهم على

رؤوسهم، ربما يأتي ذلك على شكل مرض خطير أو حادث أليم جدًا، أو رد فعل غير متوقع من الآخرين. وثمة رد فعل رقيق تعلم منه متسابق الدراجات الشهير لانس أرمسترونغ درساً قيماً، يصفه في كتابه «ليس موضوع الدراجة». ففي بداية حياته الرياضية في المضمار الأوروبي، كان عدوانيًا عالي الصوت، ولا يستحي، وكان هذا القادم من تكساس يفخر بذلك. لم يكن بحاجة «للارتباط» بجماعة ممارسي سباق الدراجات الأساسية؛ فقاطعه زملاؤه في اللعبة لهذا السبب وعزلوه، واضطروه إلى خفض سرعته، واستنفدوا طاقته وأضعفوه بأن ينطلقوا بقوة بجواره فكان يضطر إلى مجاراتهم، ولكن لم يؤثر فيه شيء من ذلك.

كان أرمسترونغ يوجّه الإهانات حتى إلى الدرّاجين ذوي المكانة، كما فعل ذات يوم وهاجم رئيس ممارسي سباق الدراجات الإيطالي مورينو أرجنتين وتحداه. سأله أرجنتين وهو مأخوذ بالمفاجأة «ماذا تفعل هنا يا بيشوب؟» وكان يظنه متسابقاً أمريكياً آخر. استفز أرمسترونغ أن الإيطالي لم يكن يعرف اسمه، وبعد عدد من الكلمات البذيئة قال له «اسمي لانس أرمسترونغ، وستعرفه جيدًا في نهاية هذا السباق». فقد كان مزهوًا بنفسه كالخنفس تمامًا، غاضبًا وتلهبه رغبة الفوز. لكن فمه كان أكبر من قدراته؛ فقد خسر هذا السباق.

بعدها بأيام كان أرمسترونغ يشترك في سباق مدته يوم واحد، وكان هذا يناسب أسلوبه العجول العدواني، ولأن جلده كان رقيقاً كالخنفس، لم يكن أرمسترونغ قد نسي «الإهانة»، فتبع أرجنتين مرة

أخرى. وفي الأمتار النهائية كان أرمسترونغ متقدمًا على المتسابقين الثلاثة الذين يجرون بدراجاتهم حوله ومن ورائه أرجنتين. رأى أرجنتين أنه لن يفوز، لكنه لم يرد أن يخسر أمام الأمريكي المتبجح؛ فقام قبل خط النهاية ببضع أقدام بإيقاف دراجته فجأة وربط عجلاتها بقفل، حتى يؤكد أنه سيكون في المركز الرابع إذ لم يشأ أن يقف إلى جوار أرمسترونغ على منصة التتويج. ولم يكن أرمسترونغ يتصور أن يفعل الرجل ذلك. «كان أرجنتين بفعله هذا يقول إنه لا يحترمني، وكان ذلك شكلاً راقيًا وغريبًا من أشكال الإهانة كما أنه مؤثر للغاية». أكسب الحدث أرمسترونغ تواضعًا وعلمه أن يعمل مع الجماعة وليس ضدها، ففي هذا استخدام أكثر ذكاءً للطاقة.

فيما بعد، سيعلم مرض السرطان أرمسترونغ دروسًا أشد قسوة عن القوة والتواضع والصبر. ولكن بينما تهذبت جوانب حادة في شخصيته، ظلت طبيعته التنافسية الشرسة على حالها، وكان ذلك من حسن الحظ. فقد اعتمد أرمسترونغ على مجموعة أوسع من القدرات، حولته من مجرد درّاج إلى رياضي عظيم فاز ببطولة فرنسا بعدد مرات قياسي.

ينبغي استخدام التغذية المراجعة (أو رؤى الآخرين لنا) في جعل أدائنا أكثر تكاملاً وقوة، ولكننا بدلاً من ذلك كثيرًا ما نستخدمها لترويض الناس وصبهم في قالب مؤسسي سابق التجهيز، وأرى أن ذلك خطأ. فإذا كان لي أن أعطي الخنفس تغذية مرتدة، كنت سأشجع خياله المدهش، وتركيزه الشديد على شيء واحد، ولاسيما

موهبة الارتقاء عنده. ولكن كنت سأنصحه بأن يكف عن إهدار هذه الطاقة الكبيرة على الأوهام وأن يواجه عدداً من الحقائق الأساسية. ولكني لن أسعى إلى تحويل الخنفس إلى مخلوق مستأنس منتحل مشاعر غيره يتمدد على أريكة ويأكل الحلوى في استرخاء. بل أريده أن يفعل ما فعله أرمسترونغ: أي أن يُحسِن توجيه طاقته غير الناضجة، ويوظفها مع غيرها حتى تصير أكثر قوة. ويمكن للمرء أن يكون واعيًا بذاته ومتفاخرًا في الوقت نفسه.

ولكن ليس ضروريًا أن يخفف كل الناس من طاقاتهم العدوانية الغاضبة، كالتي لدى الخنفس. فبعضنا يحتاج أن يفتح لها باباً أوسع، وهم أولئك الذين نشؤوا في مجتمعات تقليدية حيث يتم نزع أنيابهم وأظافرهم وينشؤوا على التهذيب.

الخنافس المكبوتة

«فإن كان ذلك لا يسعد الواحد منا، فإنه بالتأكيد لا يحب وطنه»

في مسقط رأسي لم ننشأ على الخيلاء، وكنا نعتبر العدوانيين وأصحاب الطموح أنانيين ومعتدين ويسببون الأذى لمن حولهم. وكان السعي وراء المكانة والمنصب غرورًا بائسًا وكان الحسد علامة لعدم النضج. فكنا نفضل التعاون على التنافس، والتكاتف على العمل الفردي، وبدلاً من التطلع إلى من سيحتل المركز الأول كنا نراعي بعضنا بعضاً، وبدلاً من توقيع العقود كنا نتصافح، كنا نأتمن بعضنا بعضًا لأننا كنا نلعب بالقواعد نفسها. يعرّف الدنماركيون هذا «بقانون

يانته»، وهي إشارة إلى مدينة يانته الخيالية في رواية للأديب أكسيل سانديموز. ويحوي القانون عشرة معايير ضمنية، منها «إياك أن تعتقد أنك خير منا» و«إياك أن تعتقد أنك أعلم منا».

بالرغم من أن ساندیموز لم يكتب عن قانون يانته إلا عام 1933، فإن هذه القواعد العرفية كانت موجودة قبل ذلك بزمن طويل، وكان هـ. ك. أندرسون على وعي بها. وقد سافر أندرسون كثيراً حتى يهرب من ضغوط الالتزام بهذه الأعراف. وكان يحرص على ذكر الاهتمام الذي حظي به في ألمانيا خاصة، ولكن الطبقة البرجوازية لم ترد له أن يظهر كل هذا الإعجاب ببلاد أجنبية؛ لذلك أخذ بعضهم يشكك في وطنيته، وفي ذلك تحذير شبه صريح ليكف عن السفر. جرح الهجوم أندرسون لكن رده جاء في حكاية «خنفس الروث»؛ إذ وضع كلام مواطنيه المغرورين على لسان الضفدعين المتعصبين. ففي القصة يسمع خنفس الروث الضفدعين يمتدحان صباحًا مطيرًا بائسًا، ويتساءلان إن كان العصفور قد وجد في أي رحلة من رحلاته الكثيرة للخارج مناخًا أفضل من هذا. ويؤكد الضفدعان أن من لا يقدّر هذا الطقس المطير الرائع، فإنه بالتأكيد لا يحب وطنه. وكانت هذه طريقة راقية سوّى بها هـ. ك. أندرسون حسابه معهم.

تعلمت ، مثل كل الدنماركيين، أن أخفّض من حدة طموحي ونزعاتي العدوانية، إلا أنني كنت أستمتع بها في الآخرين. على سبيل المثال، عملت مرة مع عدد من الزملاء من أصحاب الكفاءات النادرة والذوات المتضخمة جداً. كان لأحدهم مواقف أكثر طرافة من غيره، مصدرها

طريقته في تفخيم الذات التي كانت تنم عن لحظات خاطفة من الوعي بالذات، وكانت رسائله الإلكترونية تضحكني. وبينما الجزء «المهذب» منّي كان يشعر أنه يتصرف بحماقة، كان الخنفس المكبوت بداخلي يستمتع بتلك الوقاحة. وأظن أن مدينة نيويورك تأسرني للسبب نفسه. فلأن هذه المدينة نصّبت نفسها «حاضرة الدنيا»، فهي مدينة طموحة متغطرسة، ويفخر أهلها باتجاههم نحو الآخرين والذي يلخصه السؤال المتحدي: «ألك اعتراض على ما أفعل؟» ولكن لماذا أعيش ذلك في الآخرين؟ لماذا لا أعلن عن هذه الطاقة الكامنة بداخلي؟ كان جزء من خوفي أن يطغى هذا على شخصية «المهذب» داخلي. فهل يمكن أن ألعب بطاقات طموحة وعدوانية بطرق لا تضر تقديري لذاتي وتناسب صورتي عن ذاتي في الوقت نفسه؟

أما مع تجربة الطموح فقد كنت محظوظة في أن دخلت بها دنيا الأعمال الأمريكية. فما كان يثبط صار يشجع فجأة، وما كان نقطة ضعف صار فضيلة. وفيما يتعلق بتجاربي مع الغضب، كنت محظوظة فيها لأني تزوجت إسبانياً. ففي وطني كان الجميع يؤمنون بأن التعامل الصامت من علامات استثارة المشاعر، ولكني عندما استخدمت الصمت العقابي مع زوجي الذي نشأ في البحر المتوسط، لم يأتِ معه بنتيجة؛ إذ لم يلحظ ذلك قط، بل وكان يظن أن صمتي يعبر عن صفة الهدوء عندي. كان أمرًا غريبًا عليه، لكنه رحب به. وحتى أُحسن التواصل معه تعلمت أن أعبّر عن سخطي على نحو أقوى، وكان الأمر

مـرهقـاً في أول الأمـر. لكنني في النهـاية شـعـرت أن ذلك منافٍ لشخصيتي واستقر الأمر على أن أعبّر عن استيائي على نحو واضح وقوي وهادئ في الوقت نفسه.

ولابد لي من توضيح هذه النقطة، فأنا لا أدعو القراء الذين تربوا على «التهذيب» لأن يكونوا سيئي الطبع، بل أقول إننا يمكن أن نستفيد من طاقاتنا المهمشة، وندمجها في ذواتنا حتى نصبح أكثر اكتمالاً. ويمكن أن نكون مهذبين ونلعب لنكسب.

واقع العامل الحر

«الحرية شيء رائع»

إن نسج الحكايات حقيقة في حياتنا، ابتداءً من المقابلات الشخصية حتى التقارير السنوية، فنحن لا نقدم إلا روايتنا للحقيقة. ولكن ينبغي أن يوضع الأمر في مكانه: أولاً واجه الحقائق ثم أضف اللمسات الإبداعية التي تضع الصورة في إطار جيد. فالفرق بين حكاية محكمة النسج وما يقوم به الخنفس ومن شابهه من خداع للذات هو الفرق بين استخدام الحقائق وإنكارها.

يسأل الحداد في بداية القصة: «لماذا يحصل الحصان على حذوات ذهبية؟» ولكن الخنفس يرفض التعامل مع الحقائق، فينكر فضائل الحصان، ويضخم من فضائل نفسه. تلي ذلك سلسلة من المغامرات، كان من شأنها أن تعلم الخنفس الشيء الكثير عن نفسه وعن العالم.

وبدلاً من أن يعدّل صورته عن ذاته؛ فإنه يشوه الواقع (يخلق وهماً) حتى يتسق مع فكرته عن نفسه.

إن واقع مكان العمل في وقتنا هذا يتضمن عمليات تقليص حجم النشاط أو المؤسسة، أو استجلاب العاملين من مؤسسات أخرى، أو الاستعانة بعاملين من خارج البلاد، فمن الغباء إذن التمسك بأوهام الوظيفة الدائمة والمسار الوظيفي المنتظم. ولابد أن نقبل بأننا عاملون أحرار يأتي ضماننا الوحيد من امتلاك هوية مهنية قوية متطورة، أي علامتنا التجارية الفريدة. يؤكد توم بيترز في كتابه «إعادة التصور» على وجود ثلاثة عناصر رئيسية لخلق هذه العلامة الحرفية القوية: التمكن، وخلق شبكة عمل، والتسويق.

إن التمكن هو جوهر تفرد علامتنا، فجواد الإمبراطور لم يحصل على الحدوات الذهبية لمجرد أداء مهام وظيفته؛ بل لأنه ألقى بنفسه في خضم المعركة وأدى أداءً متميزاً، لم يكن هذا مجرد تعبير عن الكفاءة، بل كان أمراً استثنائياً. و نحن كذلك علينا أن نتقن شيئاً يقدّره الآخرون ويدفعون لنا مقابله، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا بالتعلم الدائم، وبتطوير حرفتنا و سجلّنا المهني.

وقبل ذلك، علينا أن ننشئ علاقات تفوق ما فعلناه من قبل. فإن خنفس الروث قيّد نفسه بجماعة الخنافس كما نفعل نحن عندما لا نخرج عن إطار علاقات المؤسسة التي نعمل بها. صحيح أننا نحتاج لعلاقات قوية مع رئيسنا وزملائنا لكن هذا لا يكفي؛ فإننا نحتاج إلى

علاقات مهنية واسعة تمتد خارج تخصصاتنا، بل إننا قد نحتاج إلى شبكة علاقات دولية في ظل الاقتصاد الكوكبي. وكلما زاد من يعرفنا ويعرف ماذا نفعل، زادت الخيارات المتوفرة لدينا وزادت قدرتنا على تجاوز العثرات.

وأخيراً، يحتاج كل منا إلى أن ينزل نفسه منزلة عالية، وأن يرقي نفسه باستمرار، فما العلامات التجارية إلا قصص وحكايات، ولأن كل واحد منا هو راوي قصته؛ فإنه يستطيع أن ينسج أسطورته الخاصة. ولكننا لا نحقق المكانة الأسطورية بمجرد «قولنا» بأننا الأعظم؛ بل لابد من أن نصبح الأعظم. فعندما كان بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل ـ محمد علي ـ في أوج مجده كان شخصية كاريزمية، يتجمع حوله أعداد كبيرة من الصغار والكبار؛ بل كان هذا البطل عبقرياً في رفع مكانته بين الناس. هذه التركيبة هي تركيبة الفوز، لم يخلق البطل محمد علي علامة عظيمة فحسب، بل تحول إلى رمز أسطوري. وكما كان محمد علي يقول والبريق في عينيه: «ليس الأمر تفاخراً أجوف إذا كنت قادراً على تحقيق ما تقول».

من بين العناصر الثلاثة، يحتل التمكن من الحرفة قلب علامتنا الفريدة. ولكنه لا يتم دون التحكم في الذات، ويقوم هذا التحكم على الوعي والاختيار. فلابد أن نكون على وعي بمواهبنا ونقائصنا الشخصية والمهنية، وكذلك دوافعنا وانفعالاتنا. وكلما زاد وعينا، زادت قدرتنا على التكيف والتصرف. هذا وحده هو الذي يتيح لنا حرية حقيقية في الاختيار، وعندها نتمكن بحق من اتخاذ قرارات صائبة.

وحتى نصبح «أبطالاً عالميين» في مجالنا، نحتاج إلى مدير شخصي على دراية دقيقة بمواطن تفردنا ومواطن تعثرنا، مدير يستطيع استغلال جوانب قوتنا ويختار لنا الأدوار العظيمة ويوجهنا حتى نقدم أفضل ما لدينا، مدير يعيننا على أن نزيد من تحكمنا في الذات و تمكننا المهني. وللأسف لا يمكن استئجار هذا «المدير الشخصي» لأنه يمثل الجزء الواعي داخل أنفسنا، ذلك الجزء الذي يمتلك المعرفة ويتخذ القرارات. ومع وجود هذا المدير الشخصي الكفء لن نكون بحاجة إلى الأوهام.

نقاط تستحق التفكير

ـ كيف تخلق جواً آمناً لا يخشى فيه الآخرون أن يعارضوا أفكارك وقراراتك؟

ـ متى كان آخر خطأ ارتكبته؟ وهل كان همك تعديل صورتك أمام نفسك؟

موضوعات تستحق أن تناقشها مع زملائك

ـ كيف نقوّض الرياء والمداهنة ونشجع المواجهة الصادقة للحقائق؟

ـ ما الدافع السائد في قسمك (الحصول على المزيد، أم الترابط، أم التعلم، أم الدفاع)؟

ـ وهل يختلف في ذلك مع الأقسام الأخرى؟ وإن كان مختلفًا، فكيف يؤثر ذلك في التعاملات بين الأقسام؟